ملخص كتاب: المشوق إلى القرآن

تأليف: عمرو الشرقاوي

جنى المعرفة:

مبادرة هادفة لإثراء المحتوى الرقمي بمنتج ثقافي قيّم، يسهم بزيادة مستوى الوعي والمعرفة عن طريق تقديم الكتب الثقافية من خلال محتوى مرئي ومسموع لكي تكون عناقيد المعرفة بين يديك.



هذه أوراق متناثرة؛ غايتها تشويق الأنام إلى كلام الملك العلّام، رسالة إلى كل محب للكتاب ليزداد حباً، وإلى كل مبتعد ليزداد قرباً. ذكرتُ فيها من كلام أهل العلم وحال السلف ما يبعث الهمة، ويقرب المسافة بيننا وبين الكتاب المحفوظ.

وإن القرآن لهو مشروع العمر، وبرنامج العبد في سيره إلى الله حتى يلقى الله! وما كان تنجيم القرآن وتصريف آياته على مدى ثلاث وعشرين سنة، إلا خدمةً لهذا المقصد الرباني الحكيم!

إن نور القرآن لا يمتد شعاعه إلى الآخرين إلا باشتعال قلب حامل كلماته، وتوهجه بحقائقه الإيمانية الملتهبة!

وإنه لكتاب عزيز!

إن القرآن هو كلام الله الذي أنزله على نبيه ﷺ ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز. ولا يليق بنا أن نبتعد عن مصدر الهدى والمجد كتاب الله ذي الذكر؛ فلا بد أن نتصالح مع القرآن.

وأول طريق التصالح مع القرآن: أن تتحايل على نفسك بالإكثار من تلاوة القرآن؛ تلاوةً لا كالتلاوات السابقة، تلاوة لا تنتظر فيها موعدًا، تلاوة لا تنشغل فيها بغير القرآن!

إن لحزب الليل، وترتيل الكتاب في وقت اجتماع القلب لَقصة أخرى، إن مما نعانيه من هذه المادية الطاغية قلب حقائق الكون؛ فلتخلُ أيها السالك بكتاب ربك في ظلمة الليل، ولتقرأ ما تحفظه، ولتُثَوِّر القرآن، لتكن من الأمة القائمة التي تتلو كتاب ربها آناء الليل، فتسجد لمن هذا الكلام كلامه، وتقترب!

وثاني الطرق للتصالح: فهم القرآن؛ فإن الإنسان لن يلتذ بكلام لا يفهم معانيه. ومهما استمعتَ إلى القرآن أو قرأتَه فأنتَ آخذ في الاهتداء بتنقية المحل وتبديد ظلمته واستبدال النور به، وتخليته من الران الذي أكسبتَه إياه بنفسك! حتى إذا نقّيت المحل وطهرته؛ كان الاهتداء بالقرآن بزيادة نور القلب، فيحصل التلذذ التام بحصول النور التام، ويحصل الاهتداء التام بعد زوال أثر المعصية زوالا تاما!

ومن طرق التصالح مع القرآن: أن تعقد مع من تحب مجالس المدارسة، فـ"ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم؛ إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده". ومن لم يكابد حقائق القرآن لهيباً يحرّق باطن الإثم من نفسه؛ فلا حظ له من نوره!

إن أهم فصل في تعريف القرآن هو أنه: "كلام الله"! وحقيقة "الوحي" هي أول صفة يجب أن نتلقى بها القرآن الكريم، وهي أهم جوهر يجب أن ننظر من خلاله إلى كلماته؛ بما هي كلمات الله رب العالمين! قال الله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾.

"الوحي" هو المصطلح المفتاح الذي به يكتشف طبيعة القرآن، ويبصر نوره، ويتلقى حقائقه الإيمانية ورسائله الربانية، ويشاهد شلالات الجمال والجلال، حية متدفقة من منابع القرآن!

إن كون القرآن "وحيًا" ليس معنى تاريخيا فحسب؛ بل هو معنى مصاحب لطبيعته أبدًا! بمعنى أن صلة القرآن بالسماء أبدية! والمشكلة أننا عندما نقرأ القرآن نربط الوحي فيه بذلك الماضي الذي كان! بينما الوحي نور حاضر، وروح حي؛ يتدفق الآن في كل آيات القرآن، وينبع من تحت كل كلماته، شلالات من كوثر ثجاج!

قُبِضَ رسول الله فانقطع الوحي التاريخي، أي: انقطع فعل التنزيل الذي كان في الزمان والمكان بواسطة جبريل –عليه السلام–، ولكن بقي الوحي القرآني، والوحي هنا صفة اسمية من أسماء القرآن المجيد: ﴿**قُل إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالوَحيِ**﴾، ﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾.

- **فالوحي له دلالتان:**

– **الوحي الحدث**، أي: النزول الخفي من السماء، وهو سبب النبوة، وهو الذي انقطع.

– **والوحي الصفة**، وهو لا ينقطع أبدا، وعليه سمي هذا القرآن المجيد "وحيًا".

مقدمات أساسية في تاريخ القرآن العزيز

المقدمة الأولى: تعريف القرآن

القرآن هو: كلام الله المنزل على نبيه محمد، المتعبد بتلاوته، المعجز بأقصر سورة منه.

- وهناك فروق متعددة بين القرآن وغيره من الكتب، منها:

١- أن الله تكفل بحفظ القرآن بخلاف غيره من الكتب: ﴿**إِنّا نَحنُ نَزَّلنَا الذِّكرَ وَإِنّا لَهُ لَحافِظونَ**﴾، أما غيره من الكتب فكما قال الله: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ**﴾؛ لذا فإن القرآن لا يتطرق إليه التحريف اللفظي، أما التحريف المعنوي فقد وقع.

٢- تيسير حفظه وتلاوته، بخلاف غيره من الكتب السابقة.

المقدمة الثانية: القرآن الكريم في العهد المكي:

كان أول ما نزل من القرآن على النبي ﷺ خمس آيات من أول سورة العلق، ثم فتر الوحي، ونزلت أوائل سورة المدثر، وتتابع نزول القرآن على النبي فيما عُرف بعدُ بالقرآن المكي، وهو ما نزل قبل الهجرة.

المقدمة الثالثة: القرآن الكريم في العهد المدني:

لما نزل النبي ﷺ المدينة وأقام المسجد، كانت تلاوة القرآن من الأمور المشهورة المنتشرة، وهناك مظاهر كثيرة للاعتناء النبوي بإيصال القرآن إلى الصحابة.

المقدمة الرابعة: القرآن في عهد الصديق:

- روَى البخاري قصة جمع القرآن في عهد الصدّيق، والسبب الذي دعا إليه أن القتل استحر بالقراء يوم اليمامة، وخُشي أن يذهب كثير من القرآن.

- فأشار عمر على أبي بكر بجمع القرآن، وعرض أبو بكر الفكرة على زيد الذي وافق عليها بعد تردد.
- وكان زيد شابا عاقلا، وكان يكتب الوحي للنبي ﷺ ، وهذه الصفات أهّلته للمهمة.
- فتتبع زيد القرآن يجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وغيرها، وصدور الرجال، حتى تمّ الأمر على مرأى من الصحابة ومسمع على أدق وجوه البحث والتحري، وأسلم أصول التثبت العلمي.
- ولم يُستفد مما جمعه الصديق استفادة مباشرة في عهده، وعهد عمر، وعهد عثمان إلى جمعه، إذ القصد من الجمع حفظ القرآن، والأصل في التلقي المشافهة والأخذ من صدور الرجال.
- ولم يلزم الصديق ولا الفاروق أحدا بما جمع، بل كان الصحابة يقرؤون كما أقرأهم النبي ﷺ ، وهناك عدة آثار تدل على هذا الأصل.

المقدمة الخامسة: القرآن في عهد عثمان:

حصل اختلاف ما حول القرآن في عصر عثمان، ففزع حذيفة إلى عثمان فأخبره الخبر، ومما يظهر أن الاختلاف كان في المرسوم، وأن هؤلاء الذين دخلوا حديثا في الإسلام انطلقوا من المرسوم لا من المحفوظ!

فأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر لترسل له مصحف أبي بكر لينسخه.

والظاهر من النصوص أن مصحف عثمان كان موافقا لمصحف أبي بكر في الترتيب وما إلى ذلك خلافا لمن زعم غيره، ولذا فإن مصحف أبي بكر لم يحرق إذ لا مخالفة بينه وبين مصحف عثمان.

وانتدب لذلك العمل: زيد بن ثابت، وعبدالله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف –وقيل: كان معهم غيرهم من الصحابة–. وطلب إليهم أن يثبتوا لسان قريش إذا اختلفوا في الرسم.

وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

ولا يعلم على التحقيق عدد المصاحف التي نسخها عثمان، وإن كان الأكثر على كونها ستة.

- **تنبيهات:**

١) عمل عثمان لا يتعلق بالمقروء، وإنما يتعلق بالمرسوم، فانتبه!

٢) القول بأن عثمان أخلى المصاحف من النقط لتحتمل القراءات، قول غير صحيح، لأن النقط لم يكن مشتهرا في الكتابة عند الصحابة والتابعين، فكيف يقال: أنهم تركوه؟!

المقدمة السادسة: مرحلة ما بعد جمع عثمان:

أرسل عثمان المصاحف إلى الأقطار. وبعدها ظهر المختصون بالإقراء كالأئمة الذين أرسلهم عثمان: أبي عبدالرحمن السلمي، وزر بن حبيش، وغيرهم ممن تنتهي إليهم أسانيد القراء.

وبعدها ظهرت مرحلة الاختيار في القراءات، فتسبيع السبعة مع الإمام أبي بكر بن مجاهد، أو جعلهم ثمانية، فعشرة -على تفصيل يُعلم في باب آخر-.

تعاهدوا القرآن

حثَّ الله نبيه على الاستمساك بالكتاب، وهو مستلزم للتعاهد: ﴿**فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾، وجعله تعالى شارة المصلحين: ﴿**وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ**﴾. وحضّ النبي ﷺ على الاستمساك بالكتاب؛ تلاوةً ومدارسةً، وجاء هذا الحض في صورة متعددة؛ منها صورة الحث بلفظ "التعاهد"، ووصف صاحب التعاهد بـ"صاحب القرآن": أي الذي ألفه، والمؤالفة المصاحبة، وهو كقوله: "أصحاب الجنة".

والقرآن كتاب عزيز له أسرار لا تظهر إلا بطول المصاحبة، فكلما ازدادت صحبة المرء مع القرآن، ازداد معرفة بأسراره وآياته وبيناته.

ومن حثه ﷺ أن بيّن منزلة صاحب القرآن في الآخرة، وكيف تكون منزلته من الجنة عند آخر آية يقرؤها! وبيّن أن القرآن يشفع لأصحابه وخاصته، المؤمنين به والملازمين لتلاوته، والعاملين بتعاليمه.

وقد ضرب ﷺ أروع الأمثال لإيضاح المقاصد؛ دافعا إلى المداومة على قراءة القرآن، ومنه: ما جاء عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله: "مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة، ريحها طيب، وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن ... الحديث". والمراد بقوله: "يقرأ القرآن" -بصيغة المضارع-: الدوام والاستمرار على تلاوته.

وقد كان النبي ﷺ يتعاهد القرآن العظيم، بعدد من أنواع التعاهد، ومن ذلك:

معارضة الملَك:

المقصود: مدارسة النبي جبريل للقرآن، كما أخبرت عائشة المشهور عنها، كل سنة مرة أو مرتين.

قراءة الحزب:

الحاء والزاي والباء أصل أوحد وهو تجميع الشيء، والطائفة من كل شيء حزب، ويقال: قرأ حزبه من القرآن، والحزب: الورد، وورد الرجل من القرآن والصلاة حزبه، والحزب: ما يجعله الرجل على نفسه من قراءة وصلاة كالورد.

والأصل في التحزيب وجوازه ما ثبت من حديث عمرو بن العاص المشهور، وكذا ما ورد من حديث أوس بن حذيفة، وفيهما أصلٌ تشريعي لتحزيب القرآن وتقسيمه حتى يسهل تعاهده، وقد اشتهر هذا التحزيب عند الصحابة -كما حكت عائشة وابن مسعود-، وإنما كان الصحابة يحزبونه سورًا تامة، لا يحزبون السورة الواحدة.

قراءة الصلاة:

من المواضع التي كان النبي ﷺ يتعاهد فيها القرآن الكريم الصلاة المفروضة؛ سواء كانت سرية أو جهرية، وكذلك النوافل.

القيام بالكتاب:

أشار الله تعالى إلى أفضل طرق المعاهدة، والتي ينبغي لحافظ القرآن الاعتناء بها، وهي قيام الليل بالمحفوظ من القرآن: ﴿**وَمِنَ اللَّيلِ فتَهَجَّد بِهِ نافِلَةً لَكَ عَسى أَن يَبعَثَكَ رَبُّكَ مَقامًا مَحمودًا**﴾ وإن الليل مظنة الحضور والفهم وصفاء النفس وتفريغ القلب من العلائق والشواغل.

التعاهد العام حضرًا وسفرًا:

ومن تعاهد النبي ﷺ للقرآن قراءته على الدابة، كما جاء عن عبدالله بن مغفل.

وأن أتلو القرآن!

قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ**﴾. وهذه التلاوة هي الوظيفة التي جاء بها صلوات الله وسلامه عليه، تلاوة الكتاب، وتلاوة الكتاب فقط! تلك التلاوة التي تبعث في قلبك النور، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

تلك التلاوة التي تمدك بالحياة: ﴿**أَوَمَن كانَ مَيتًا فَأَحيَيناهُ وَجَعَلنا لَهُ نورًا يَمشي بِهِ فِي النّاسِ كَمَن مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيسَ بِخارِجٍ مِنها كَذلِكَ زُيِّنَ لِلكافِرينَ ما كانوا يَعمَلونَ**﴾.

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ**﴾ والتالون للكتاب تلاوة حقيقية هم الذين يتبعونه في أوامره فيمتثلونها، وفي نواهيه فيتركونها، وفي أخباره فيصدقونها ويعتقدونها، ولا يقدمون عليه ما خالفه من الأقوال، ويتلون أيضا ألفاظه بدراسته، ومعانيه بتتبعها واستخراجها.

فحقيقة التلاوة في هذه المواضع هي التلاوة المطلقة التامة، وهي تلاوة اللفظ والمعنى؛ فتلاوة اللفظ جزء مسمى التلاوة المطلقة، وحقيقة اللفظ إنما هي الاتباع، يقال: اتلُ أثر فلان، وتلوتُ أثره، وقفوتُهُ وقصصتُهُ، بمعنى: تبعته، ويسمى تالي الكلام تاليا؛ لأنه يُتْبِعُ بعض الحروف بعضا، لا يخرجها جملة

واحدة، بل يُتْبع بعضها بعضا مرتبة، وكلما انقضى حرف أو كلمة أتبعه بحرف آخر وكلمة أخرى، وهذه التلاوة وسيلة وطريق.

والمقصود التلاوة الحقيقية، وهي تلاوة المعنى واتّباعه؛ تصديقا لخبره وائتمارا بأمره، وانتهاء عن نهيه، وائتماما به، حيثما قادك انقدتَ معه!

والتلاوة التي ننشدها هي التلاوة بمنهج التلقي، يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿**وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ**﴾. وأنتَ تتلقى القرآن (روحا) من لدن الرحمن: ﴿**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾.

و(تلقِّي القرآن) بمعنى: استقبال القلب للوحي، على سبيل الذكر؛ إنما يكون بحيث يتعامل معه العبد بصورة شهودية، أي كأنما هو يشهد تنزله الآن غضا طريا! فيتدبره آيةً آية باعتبار أنها تنزلت عليه لتخاطبه هو في نفسه ووجدانه، فتبعث قلبه حيا في عصره وزمانه!

أن تتلقى القرآن معناه: أن تصغي إلى الله يخاطبك! فتبصر حقائق الآيات وهي تتنزل على قلبك روحا. وبهذا تقع اليقظة والتذكر، ثم يقع التخلق بالقرآن، على نحو ما هو مذكور في وصف رسول الله ﷺ، من حديث عائشة لما سُئلت عن خُلقه.

إن القرآن لا يشتغل حقيقة إلا إذا تحرك به قلب العبد المؤمن! واشتعل له وجدانه! وتهيأ كيانه كله للاشتعال! فالمعاناة الإيمانية النابعة من صدق الإقبال على الله، وشدة الافتقار إليه؛ هي وحدها الكفيلة بتهيئة النفس وتصفيتها؛ حتى تصلح مرآتها لتعكس أنوار حقائق الإيمان الكامنة في القرآن وتستدر أسرار العرفان المكتنزة فيه!

من أراد العلم؛ فليثور القرآن

مصطلح (تثوير القرآن) من المصطلحات التي أطلقها الإمام الحبر ابن مسعود، قال: "إذا أردتم العلم فأثيروا القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين".

وقد اختلفت عبارات أهل العلم في بيان هذا المصطلح، وإن اتفقت معانيهم، فكان مفهومه عندهم: مناقشة القرآن ومدارسته والبحث فيه وتقليب آياته والنظر إليها من وجوه متعددة، وعليه؛ فإن تثوير القرآن ضرب من ضروب التدبر لكتاب الله، وينطلق من:

١- معرفة معنى الآية على سبيل الإجمال (التفسير على اللفظ، التفسير على المعنى، التفسير على الإشارة والقياس).

٢- إثارة الأسئلة على نفسه، وهي من أهم مراحل التثوير.

٣- مفاتشة العلماء، ومناقشتهم في تفسير الآيات.

٤- التأمل العميق، ويكون بالاعتناء بعلوم السورة، وعلوم الآية، كليهما.

ومما يعين على التثوير الاهتمام بالتحزيب، فقد كان للقراء تحزيب للقراءة مأخوذ من السنة.

أن تجعل القرآن ربيع قلبي ..

عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: "ما قال عبد قط إذا أصابه هم أو حزن: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علّمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور بصري وجلاء حزني وذهاب همي؛ إلا أذهب الله همه .. الحديث".

فالمطلوب إذن: "أن تجعل القرآن ربيع قلبي"، وكما أن الربيع زمان إظهار آثار رحمة الله وإحياء الأرض بعد موتها، فكذلك القرآن يظهر منه تباشير لطف الله من الإيمان والمعارف، وتزول به ظلمات الكفر والجهالة والهموم. إن القرآن له كبير الأثر في تحصيل السكينة، وهو معنى متواتر معاين.

مجالس النور

مجالس النور هي مجالس القرآن. ومشروع (مجالس القرآن) -كما يقول د. فريد الأنصاري-: مسلك تربوي مبسَّط، لسلوك طريق النور؛ قصدَ التعرف إلى الله! مشروع ليس لنا فيه من الاجتهاد إلا الجمع والترتيب ومراعاة التنزيل في واقع جديد! نأخذه كما هو من القرآن والسنة. (مجالس القرآن) عرض متجدد لموائد الروح! فهذا القرآن العظيم أمامك الآن!

وقد وضع الأنصاري عدة ضوابط لإنجاح مجالس القرآن، منها: تجريد القصد لله، وتحيُّن أوقات الانشراح النفسي للقرآن، والإقبال الوجداني على الذكر، ومظانّ اليقظة الإيمانية، وعدم عقد أكثر من لقاء واحد أو لقاءين في الأسبوع الواحد، وغيرها.

والضابط الكلي الجامع لضمان سير مجالس القرآن ونجاحها هو: الحفاظ على ميثاق القرآن والالتزام به بقوة! إذ بذلك يعرف الجليس الصادق من غيره.

والقرآن حجة لك أو عليك!

هل أتاك نبأ الرؤيا التي رآها النبي ﷺ ، وقصّها على أصحابه؟!

قد حكى النبي ﷺ أن صاحبيه قالا له انطلق، قال: "فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بفهر -أو صخرة- فيشدخ به رأسه، فإذا ضربه تدهده الحجر، فانطلق إليه ليأخذه، فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو، فعاد إليه، فضربه، قلت: من هذا؟ قالا: ... والذي رأيته يتشدخ رأسه، فرجل علمه الله القرآن، فنام عنه بالليل ولم يعمل فيه بالنهار، يفعل به إلى يوم القيامة".

لهذه الدرجة! أنعم الله عليه وآتاه القرآن، لكنه ترك كل ذلك، ونام عنه، ولم يعمل به، فكان هذا جزاؤه، فاللهم سلم!

والقرآن حجة لعبد عرفه، وشهادة له بخروجه من العمى للإبصار: ﴿**أَفَمَن يَعلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَبِّكَ الحَقُّ كَمَن هُوَ أَعمى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوالأَلبابِ**﴾، وحجة على عبد أعرض عنه: ﴿**وَقَد آتَيناكَ مِن لَدُنّا ذِكرًا * مَن أَعرَضَ عَنهُ فَإِنَّهُ يَحمِلُ يَومَ القِيامَةِ وِزرًا**﴾.

والقرآن حجة لك وشاهد بالخيرية إن تعلمته وعلمته، قال النبي ﷺ: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه".

والقرآن حجة لك ونجاة من الهلكة والضلال، وفي الحديث: "تركتُ فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله".

إنّا سنلقي عليك قولًا ثقيلًا

فهم المصطلحات التي يتداولها الناس من الأمور المستحسنة، والتفريق بينها وبيان حدودها معين على عدم الوقوع في الخطأ. ومن هذا المنطلق سأحاول أن أعرض للفرق بين ثلاثة مصطلحات يقع بسبب الخلط بينها تجرؤ على كتاب الله، وهي: (التفسير، التدبر، التأثر).

- **التفسير، هو: بيان معاني القرآن العظيم.**

وهذا البيان إما أن يصل إليه المفسر اجتهاداً، وإما أن يصل إليه تقليداً.

والاجتهاد على قسمين:

١- الاجتهاد في بيان المعنى المراد من الآية، وأئمة المجتهدين هم الحجة من الصحابة والتابعين وأتباعهم.

٢- أن يجتهد في التخير من أقوال المجتهدين السابقين، أو بناء الأقوال على أقوالهم، وهم على طبقات شتى، ومن أجلّهم ابن جرير، وابن عطية، وابن تيمية، وغيرهم.

ومن ثَمَّ فإن مسؤولية التفسير عظيمة، والكلام فيه بغير علم كافٍ وتحقيق تام من الافتراء على الله، والقول عليه بغير علم، ولذا كان كثير من السلف يتورعون عن الكلام فيه بحرف!

وكثير من الناس يظن أن التفسير مجرد (تأليف) وكتابة إنشاء حلوة حول الآيات، كتفسير نص شعري، ولربما سمّاه "تأملا"، أو "خواطر"، وغير ذلك، ولا يغني هذا عن التبعة شيئا!

- **التدبر أقرب ما يمكن أن يقال في تعريفه: "تأمل القرآن بقصد الاتعاظ والامتثال".**

أو: "الوقوف مع الآيات والتأمل فيها، والتفاعل معها؛ للانتفاع والامتثال".

وهذا التدبر لا بد أن يسبقه فهم للمعنى المراد من الآية، إذ محل التدبر مدلولات الآيات.

وعليه؛ فيمكن التفريق بين التدبر والتفسير من عدة وجوه:

١- أن التفسير هو كشف المعنى المراد في الآيات، والتدبر هو ما وراء ذلك من إدراك مغزى الآيات ومقاصدها، واستخراج دلالاتها وهداياتها، والتفاعل معها، واعتقاد ما دلت عليه وامتثاله.

٢- أن التدبر أُمر به عامة الناس للانتفاع بالقرآن والاهتداء به، ولذلك خوطب به ابتداءً الكفار في آيات التدبر، والناس فيه درجات بحسب رسوخ العلم والإيمان وقوة التفاعل والتأثر. وأما التفسير فمأمور به بحسب الحاجة إليه لفهم كتاب الله بحسب الطاقة البشرية.

٣- أن التدبر لا يحتاج إلى شروط إلا فهم المعنى العام مع حسن القصد وصدق الطلب، ولذلك قال الله: ﴿**وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ**﴾. وأما التفسير فله شروط ذكرها العلماء، لأنه من القول على الله، ولذا تورع عنه بعض السلف.

ومما ينبغي أن يُعلم أن الناس على درجات متفاوتة في التدبر بحسب آلاتهم وإمكاناتهم، فليس تدبر العالم المتبحّر في الشريعة كتدبر العامي، ولكلٍ درجات، والله الذي يهدي!

- **التأثير: هو ضرب من ضروب التدبر، وهو ما يسميه بعض العلماء "التدبر الوجداني".**

وهذا التأثر يختلف عن التدبر بالمعنى المتقدم بأنه قد لا يحتاج إلى تأمل عقلي أو إلى معرفة بالدلالات العميقة للآيات.

ولا بد من التنبيه على أن بعض المشركين وبعض الأعاجم يقع عنده من التأثر بالقرآن مع عدم معرفة المعنى، إذ للقرآن سطوة على النفوس!

وإنما نبهت على ذلك لأنه قد يخلط بعض الناس بين التدبر والتأثر من سماع القرآن؛ فيجعلون القشعريرة التي تصيب الإنسان والخشوعَ الذي يلحقه بسبب تأثير القرآن عليه هو التدبر، وليس الأمر كذلك.

فالتدبر عملية عقلية تحدث في الذهن، والتأثر انفعال في الجوارح والقلب، وقد يكون بسبب التدبر، وقد يكون بسبب روعة القرآن ونظمه، وقد يكون بسبب حال الشخص في تلك اللحظة، والله أعلم.

لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام الله!

كانت للسلف عناية بالغة بكتاب الله من جوانب شتى، وهذه العناية أثر من آثار تمسكهم بهدي النبي ﷺ، وقد برز تعاهدهم للقرآن في عدة جوانب، منها:

- **محبتهم للقرآن وإقبالهم عليه:**

إن من يعرف نعمة الله عليه بالقرآن؛ يتلوه ويتدبره ويعمل به ويقدره حق قدره، بل ويتحسر عند انقطاعها ويحزن على ذلك، وذلك دليل صدق المحبة والرغبة، ومن أمثلة ذلك ما رواه أنس رضي الله عنه، قال: قال أبو بكر، بعد وفاة النبي ﷺ لعمر: "انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها، كما كان رسول الله يزورها، فلما انتهينا إليها بكت، فقالا: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله! فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء؛ فهيّجتهما على البكاء، وجعلا يبكيان معها".

- **عنايتهم بالقرآن:**

كان السلف يعتنون بالقرآن تلاوةً، وحفظًا، وتدبرًا، ومن ذلك: أن عبدالله بن عمر كان إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه.

- **وكانوا يجتهدون في تلاوة القرآن:**

فعن ابن شوذب، قال: "كان عروة بن الزبير يقرأ ربع القرآن كل يوم في المصحف ويقوم به ليله"، قال: "فما تركه إلا ليلة قطع رجله"، قال: "ثم عاود حزبه من الليلة المقبلة".

- **وقد كانوا يخافون ويحزنون إذا ضاع حزبهم من القرآن:**

قال أبو داود الجفري: "دخلت على كرز بن وبرة بيته فإذا هو يبكي، فقلت له: ما يبكيك؟ قال: إن بابي مغلق، وإن ستري لمسبل، ومنعت حزبي أن أقرأه البارحة، وما هو إلا من ذنب أحدثته".

- **وأما عنايتهم بحفظ القرآن؛ فكثير، ومنه:**

ما ثبت عن عبدالله بن مسعود: "والله لقد أخذت من فِيّ رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة".

- **ومن وجوه عنايتهم بالقرآن: قيامهم الليل به:**

يقول علي بن أبي طالب: "لقد رأيت أثرا من أصحاب رسول الله، فما أرى أحدا يشبههم، والله إن كانوا ليصبحون شعثا غبرا صفرا، بين أعينهم مثل ركب المعزى، قد باتوا يتلون كتاب الله، يراوحون بين أقدامهم وجباههم، إذا ذكر الله مادوا كما تميد الشجرة في يوم ريح، فانهملت أعينهم حتى تبل والله ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين".

- **وكانوا إذا فاتهم الحزب قضوه:**

يقول عبدالرحمن بن عبدالقاري: استأذنت على عمر بالهاجرة، فحبسني طويلا، ثم أذن لي، وقال: "إني كنت في قضاء وردي".

- **وكانوا يعتنون بترتيل القرآن وتحسين الصوت به:**

قال سعيد بن عبدالعزيز: حدثني أبو يوسف حاجب معاوية: أن أبا موسى الأشعري قدم على معاوية، فنزل في بعض الدور بدمشق، فخرج معاوية من الليل ليستمع قراءته؛ وقال أبو عثمان النهدي: "ما سمعت مزمارا ولا طنبورا ولا صنجا أحسن من صوت أبي موسى الأشعري؛ إن كان ليصلي بنا فنود أنه قرأ البقرة من حسن صوته".

- **وكانوا يعتنون بتعلم القرآن وتعليمه:**

فعن عثمان، عن النبي ﷺ ، قال: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه".

- **وكانوا يبذلون الغالي والنفيس في تعلم القرآن:**

قال أبو الدرداء: "لو أعيتني آية من كتاب الله، فلم أجد أحدا يفتحها علي إلا رجلا ببرك الغماد لرحلت إليه".

- **وكانوا يعتنون بتعليم القرآن ويحثون عليه:**

قال عبدالله بن عمرو بن العاص: "عليكم بالقرآن فتعلموه، وعلموه أبناءكم، فإنكم عنه تسألون، وبه تجزون، وكفى به واعظا لمن عقل".

- **وكانوا ينصحون طلبتهم، ويثنون على المجتهدين منهم، ويصبرون على تعليمهم:**

قال مالك بن دينار: "يا حملة القرآن ماذا زرع القرآن في قلوبكم؟ فإن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيب ربيع الأرض".

- **وكانوا يرشدون طلابهم إلى الطريقة المثلى لحفظ القرآن ومراجعته ومعاهدته:**

قال أبو العالية الرياحي: "تعلموا القرآن خمس آيات خمس آيات؛ فإنه أحفظ لكم".

- **وكانوا يعملون بالقرآن:**

كان ابن عمر يقول: "كنا صدر هذه الأمة وكان الرجل من خيار أصحاب رسول الله ما معه إلا السورة من القرآن أو شبه ذلك، وكان القرآن ثقيلا عليهم ورزقوا العمل به، وإن آخر هذه الأمة يخفف عليهم القرآن حتى يقرأه الصبي والأعجمي فلا يعملون به".

- **وكانوا يحذرون أهل القرآن من الانشغال عنه:**

جاء عن عمر بن الخطاب أنه قال: "يا معشر القراء ارفعوا رؤوسكم فقد وضح لكم الطريق فاستبقوا الخيرات لا تكونوا عيالا على الناس".

أفياء

هذه بعض خواطر عرضت لي من بعض الآيات، أغلبها من باب الملح واللطائف، والقرآن موردٌ يورده الخلق، كل ينال منه على مقدار ما قسم الله له، وهذه أمثلة لها:

سورة البقرة

١- بعض ما يسميه الناس تدبرات وخواطر، إنما هي في الحقيقة "أمنيات"، أي: أنه يتمنى أن تكون الآية كما يتمنى هو لا ما هي عليه على الحقيقة!! وقد ذم الله أهل الكتاب على ذلك، قال: ﴿**وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**﴾.

٢- لا يحق للمرء أن يتعامل بالأخلاق الكريمة مع أبناء جماعته أو حزبه أو تياره فحسب، فإذا تعامل مع غير هؤلاء قلب لهم ظهر المجن! فالأخلاق عطية من الله؛ تتعامل بها مع كل أحد! ألا ترى أن الله يقول: ﴿**وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا**﴾.

٣- قلب الحقائق من أهم وسائل الطغاة للتشغيب على الحق! ألم تر إلى قول النمرود حين قال له الخليل: ﴿**رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾، فقال الطاغية: ﴿**قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾.

سورة المائدة

كثرة الأتباع ليس لها قيمة في ميزان الشرع، فقد يأتي النبي وليس معه أحد، ومن قول الكليم: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي**﴾. أما العوام فكما يقال: عقولهم في عيونهم.

سورة الأعراف

يتحمل الأقوام جزءًا من طغيان الطاغية، ويعمهم الهلاك معه! قال سبحانه: ﴿**وَدَمَّرنا ما كانَ يَصنَعُ فِرعَونُ وَقَومُهُ وَما كانوا يَعرِشونَ**﴾.

سورة الأنفال

الاستزادة من الإيمان، والدعوة إلى العمل الصالح واجب كل وقت، وهي فرض على الأعيان! ﴿**يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنوا إِذا لَقيتُم فِئَةً فَاثبُتوا وَاذكُرُوا اللَّهَ كَثيرًا**﴾.

سورة يونس

﴿**يا أَيُّهَا النّاسُ قَد جاءَتكُم مَوعِظَةٌ مِن رَبِّكُم وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدورِ وَهُدًى وَرَحمَةٌ لِلمُؤمِنينَ**﴾ من السنن المهجورة في هذا الزمان: مجالس السماع القرآني، وقد كانت هذه المجالس تنعقد على عهد الصحابة -رضوان الله عليهم-! بل كان عمر بن الخطاب يحرص على تلك المجالس، وهي على ضربين:

١- ما يكون بمجرد تلاوة الكتاب والاستماع إليه!

٢- ما يكون بصحبة التدارس للقرآن.

سورة المجادلة

قاعدة: ﴿**يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا * أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾.

سورة المدثر

ليس في طريق الآخرة وقوف! ﴿**لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ**﴾.

ملاحق

الملحق الأول

علم التفسير وسؤال المنهجية

السؤال: نشكو في أزماننا العشوائية في طلب العلوم على اختلافها، ومع ظهور توجه للعناية بالمنهجية التعليمية وهو أمر حسن، إلا أن فريقا ينشغل بالسؤال (ماذا أقرأ)، ولا يلتفت إلى (كيف) أقرأ، وهو ما نحاول العناية به ها هنا.

علم التفسير ليس كغيره من العلوم التي وجدت فيها متون يترقى الطالب بها، من متن يصور مسائل العلم إلى آخر يصور المسألة مع إقامة الدليل، إلى ثالث يضيف دفع الشبهات عن الدليل، وتحرير المسألة. ولذلك فلا بد أولا من سؤال ينبني عليه طبيعة الكتب التي ستقرأ، وطريقة القراءة، وهو ما يهدف من قراءتك لكتب التفسير؟ واختصارًا فإن الناس ينقسمون في قراءة كتب التفسير إلى:

١- قراءة لمعرفة معنى الآية الإجمالي، مع إدراك شيء من لطائفها، ليفهم كلام ربه؛ إذ كيف يلتذ بكلام الله من لا يعرف معانيه؟!

٢- طالب علم يريد -إضافة إلى ما سبق- الترقي في هذا العلم كما يترقى في غيره من العلوم.

- **فأما الأول، فإنه بحاجة إلى أمرين:**

١- إدراك غريب القرآن، ويكفيه ما يعينه على إدراك معنى الكلمة من أقرب طريق، ككتاب الشيخ/ مخلوف، أو كتاب د. الخضيري (السراج في بيان غريب القرآن).

٢- إدراك المعنى الإجمالي، وهناك كتب ألفت في هذا المجال، وهي كتب سهلة؛ ككتاب التفسير الميسر، أو المختصر في التفسير، أو تفسير السعدي. ومن الكتب التي تفيد في هذه الفترة كتب د. فريد الأنصاري.

- **أما الثاني – وهو موضوع المقالة– فيحتاج أن يسلك طريقا تعينه على إدراك مراده، وذلك ما سأجتهد في إبرازه في الآتي، فأقول:**

أولا: إن طالب العلم بحاجة إلى معرفة الفرق بين التفسير وبين المعلومات الموجودة في كتب التفسير، فليس كل معلومة موجودة في كتب التفسير هي من صلب علم التفسير، إذ كل علم له بالقرآن متعلق، وقد يستطرد المفسر في علم برع فيه، فيتكلم عليه في سياقات كلامه عن الآيات.

ثانيا: إذا علمت ذلك، فإن أولى ما تتوجه إليه العناية أن تعتني بالمعاني، فالتفسير في حقيقته، هو إدراك معاني القرآن، وهي ليست بالهينة، وليس الخبر كالمعانية وقد يعسر على صاحب الوجد أن يصف الصبابة وصفا يحقق ما في نفسه في نفس قارئه، فاطلب تجد.

ثالثا: أول ما تهتم به –رعاك الله– أن تدرك أمرين اثنين:

١-إدراك غريب القرآن، ومن أيسر كتبه (السراج) للخضيري، وأجلّها (مفردات الراغب).

٢-إدراك المعنى الإجمالي، فاهتم بالكتب التي تصور المعنى في ذهنك تصويرا صحيحا، وابتعد عن الكتب التي كتبت بالأسلوب الإنشائي، فإنها ستشوش عليك، ومن الكتب المقترحة: (التفسير الميسر، المختصر في التفسير، تفسير ابن جزي ط. المنتدى، تفسير ابن أبي زمنين ط. الفاروق، تفسير الإيجي، جامع البيان ط. غراس).

ومما أختاره وأشجع عليه، أن لا تكتفي في هذه المرحلة بكتاب واحد، بل كن ذا همة، واجمع بين كتابين في التفسير لئلا تتعنى في المرحلة التالية، وهما: (التفسير الميسر، وتفسير ابن جزي).

وفي هذه المرحلة عليك أن تطالع شيئا في أسباب النزول، مع تكرار قراءة أصلك في التفسير أكثر من مرة، حتى ترى أنك قد استظهرته لتنتقل إلى ما بعده.

رابعا: بعد هذه المرحلة يلزمك لزاما أن تطّلع على كتب أصول التفسير، وعلوم القرآن، ومناهج المفسرين (راجع: جهود الأمة في أصول التفسير، علوم القرآن تاريخه وتصنيف أنواعه، كلاهما د. مساعد الطيار).

خامسا: بعد هذه المرحلة التي تكون قد أدركت فيها:

١) المعنى الإجمالي، مع معرفة الغريب.

٢) وأدركت طرفًا من علوم القرآن وأصول التفسير، ومناهج المفسرين.

٣) مع دراستك لمبادئ العلوم الشرعية، إذ هن إخوة لعلات.

ومن الكتب المرشحة لهذه المرحلة: (كتاب الإمام ابن الجوزي، زاد المسير ط. المكتب الإسلامي أو دار الفكر).

وفي هذه المرحلة اهتم بمطالعة بعض كتب التفسير المناسبة لمرحلتك؛ ككتاب الإمام أبي الفداء ابن كثير، وكتاب التفسير للإمام ابن أبي حاتم، والدر المنثور للحافظ السيوطي.

والجامع لهذه الكتب هي الاهتمام بجمع الأقاويل في الآيات، مع ما في بعضها من التحرير.

سادسا: وبعد تلك الرحلة فعليك بكتابين عظيمين جليلين لإمامين؛ أحدهما: لابن جرير الطبري "جامع البيان"، وأما الثاني فهو: لابن عطية "المحرر الوجيز". وابدأ بكتاب الإمام ابن عطية؛ فافهمه وقلِّبه، واجعله سميرك، فهو كتاب مؤسس لا يستغني عنه طالب هذا العلم.

- **وعليك أثناء قراءتك بالاعتناء بالتالي:**

١- معرفة أقوال السلف، مع ضبط ما حدث بعدهم من الأقوال الصحيحة المحتملة.

٢- القواعد العلمية التي يستخدمها العلماء من أهل التحقيق.

٣- طريقة الوصول للمعنى.

٤- مناقشة الاختلاف بين المفسرين، مع توجيه أقوال السلف خصوصا عند ابن عطية.

٥- التعرف على منهجية المفسر، وهي مهمة جدا في إدراك المؤثرات على المفسر؛ كعقيدته أو توجه تفسيره.

ومما ينبغي الاهتمام به: الاهتمام بتطبيقات علوم القرآن في كتب المفسرين، وكتب التفسير تحتوي على تطبيقات لا توجد في مصنفات علوم القرآن.

الملحق الثاني

منهج في علوم القرآن وأصول التفسير

أولا: تنبغي النصيحة بألا تنشغل بسؤال المنهجية كثيرا، بل انشغل بالعمل وبه تدرك بغيتك!

- **أما عن علوم القرآن:**

١) قراءة بحث: علوم القرآن تاريخه وتصنيف أنواعه، د. مساعد الطيار.

٢) مذاكرة القواعد الأساسية للشيخ الجديع.

٣) قراءة كتاب: أنواع التصانيف المتعلقة بالقرآن الكريم، د. مساعد الطيار.

٤) مذاكرة المحرر في علوم القرآن، د. مساعد الطيار.

٥) مذاكرة مواقع العلوم في مواقع النجوم، للبلقيني.

٦) قراءة: مدخل إلى التعريف بالمصحف الشريف، وعلوم القرآن بين الإتقان والبرهان؛ كلاهما لحازم حيدر.

٧) قراءة مناهل العرفان للزرقاني، مع تقويم د. خالد السبت.

٨) قراءة الإتقان للسيوطي، مع تعليقات د. مساعد الطيار.

- **أما أصول التفسير:**

١) قراءة بحث: جهود الأمة في أصول التفسير، د. مساعد الطيار.

٢) مذاكرة كتاب: التحرير في أصول التفسير، د. مساعد الطيار. مع الشرح المسجل له.

٣) مذاكرة: شرح مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، د. مساعد الطيار.

٤) قراءة علوم القرآن عند الإمام الشاطبي، د. مساعد الطيار، عناية/ أحمد سالم.

٥) قراءة اختلاف السلف في التفسير، وهي مهمة، للباحث/ د. محمد صالح محمد سليمان.

٦) قراءة قواعد الترجيح، للشيخ الحربي.

والحمد لله رب العالمين